رابعا : العمارة العسكرية

كانت الدولة العثمانية دولة عسكرية بامتياز ، ولذلك فقد حرص العثمانيون دائما على بناء المنشآت العسكرية والعناية بها ، ولم تكن الجزائر استثناء في ذلك ، فمنذ إلحاقها بالدولة العثمانية ظهرت حركة واسعة لبناء هذه المنشآت بسائر المدن ، خاصة مدينة الجزائر عاصمة البلاد .

1 - العمارة العسكرية بمدينة الجزائر :

وتشمل الأسوار ، الحصون والقلاع بالإضافة إلى أماكن إيواء الانكشارية وسَجْن الأسرى النصارى ، أي الثكنات والمعتقلات .

1 - 1 - الأسوار والخندق :

في نهاية القرن 16 قام هايدو بحساب محيط هذا السور لكن بطريقة بدائية نوعا ما ووجد أنه يبلغ من جهة البر نحو 1800 خطوة ، ومن جهة البحر حوالي 1600 خطوة وليكون هذا السور أشد قوة ومتانة فقد بني بالحجارة المصقولة من الأسفل ، وبالآجر من الأعلى بسمك ثابت قدره 12 قدم ، أما بالنسبة لارتفاعه فقد بلغ 30 قدما من جهة البر و 40 قدم من جهة البحر .

دُعِم سور المدينة بمجموعة من الأبراج المربعة موزعة بانتظام ، ومن جهة البر وزيادة في الأمن فقد سبق على كامل محيطه بخندق عرضه 20 قدما وعمقه سبعة أقدام ويتكلم دوفو عن سور آخر أقل ارتفاعا من الأول يلي الخندق ، ويبدو أنه انفرد بهذا الوصف ، فلا يوجد من تحدث عن سور ثان ممن وصفوا المدينة .

ومن الجدير بالذكر هنا أن هذه الأسوار لم تُبْنَ في وقت واحد ، بل إنها خلاصة أعمال متراكمة ، وتجديدات وترميمات متتابعة من طرف عدة باشاوات تداولوا على حكم الجزائر خلال العهد العثماني .

1 - 2 - القلاع والحصون والأبراج :

تضم المدينة مجموعة من القلاع والحصون والأبراج داخل محيط الأسوار ، كما توجد أيضا مجموعة أخرى خارج الأسوار لكنها مخصصة أيضا للدفاع عن المدينة .

أ - داخل الأسوار :

بالنسبة لتلك الموجودة داخل المدينة ، فهي كثيرة جدا وقد أحصاها هايدو وقال أن الأهم منها ستة من جهة البر وواحد فقط من جهة البحر وهو حصن باب الجزيرة وقد أشار إلى عدد الفتحات المخصصة للمدافع واتجاهاتها كما حدد عيار المدفعية المستخدمة فيها ، بالإضافة إلى حصنين آخرين بجزيرة الميناء ، لاحقا قام كلاين بإحصاء كل هذه المنشآت تقريبا وقدرها بـ 15 منشأة دفاعية فضلا عن تلك الموجودة بجزيرة الميناء والمقدرة بـ ثمانية منشآت ، وقد حدد أماكنها ، تواريخ إنشائها ومن أنشأها عدد مدافعها وفي كثير من الأحيان تواريخ زوالها واندثارها أو تهديمها ، وليس هنا مقام ذكرها جميعا ولكن لنتكلم عن اثنين فقط منها ، نبدأ بحصن القصبة الذي يوجد بأعلى المدينة ، أبعاده 60×100 خطوة ، جداره الخارجي كان يمثل جزءا من أسوار المدينة ، له باب من جهة المدينة عبارة عن عقد محمول على دعامتين تعلوه كتابة تأسيسية تحمل اسم الباشا خيضر وتاريخ 1591 ، و الحقيقية أن عروج بربروسة هو من ابتدأ إنشاءه عام 1516 ، وقد كان يضم في وقت خيضر باشا 27 مدفعية مصوبة نحو المدينة ، و20 مدفعية أخرى مصوبة إلى خارج المدينة .

المنشأة الثانية هي حصن باب الجزيرة ويسمى أيضا : حصن الأندلس ، (طُبّانة الجمرك) ويسمى حاليا : حصن 23 أو قصر رؤساء البحر .

أنشئ هذا الحصن من طرف القائد التركي صفر بن عبد الله عام 1551 وقد كان الأجمل بالمدينة أبعاده 30×40 م ، كان يضم 23 قطعة مدفعية من البرونز هي الأجود في المدينة أحدها بسبع فوهات جلب من فاس عام 1576 ، لكنه نقل إلى باريس بعد احتلال القوات الفرنسية للجزائر مباشرة عام 1830 .

ب - خارج الأسوار :

أما عن الحصون الموجودة خارج الأسوار فالأهم منها خمسة :

- برج ستي تاقليلت :

وكان يسمى أيضا (حصن 24 ساعة ، برج العلج علي) ، هذا الحصن رباعي الأضلاع يقع على يمين الخارج من باب الوادي على بعد 370 خطوة ابتدأ بناءه محمد باشا عام 1557 ، وأتمه علي باشا (العلج علي) عام 1569 .

ـ الحصن الجديد :

ويسمى أيضا (برج الزوبية ـ المزبلة العمومية ـ) ، قام ببنائه مصطفى باشا على أنقاض حصن قديم بني عام 1576 من طرف رمضان باشا .

ـ حصن النجم :

ويسمى أيضا برج محمد باشا يقع جنوب برج ستي تاقليلت على بعد 1000 خطوة شيد هذا البرج من طرف محمد باشا عام 1568 .

ـ حصن الإمبراطور :

وكان يسمى محليا برج بوليلة لأن الإمبراطور **شارل كان** خيم فيه ليلة واحدة ثم انسحب يجر أذيال الهزيمة ، كما سمي برج الطاووس ، برج مولاي حسن نسبة إلى حسن باشا بن خير الدين الذي ابتدأ بناءه عام 1545 ، لاحقا تم تدعيم هذا الحصن بأربع قلاع عام 1580 ، كان يقع هذا الحصن في الجنوب الغربي للمدينة ، وهو ذو شكل رباعي الأضلاع ارتفاع جدرانه 40 قدما وسمكها عشرة أقدام ، وقد ذكر الجاسوس بوتان أن عدد فوهات الحصن كان 77 أما المدافع فعددها 35 فقط ، وقد زاد عددها إلى 91 أثناء مقاومة الغزو الفرنسي .

ـ برج رأس تافورة :

ويسمى أيضا حصن باب عزون كان يقع في المنطقة التي تسمى حاليا ساحة بور سعيد ، يذكر كلاين أنه أنشئ ما بين 1581 و 1584 ، وأن مصطفى باشا قام بتوسعته عام 1798 ، وفي عام 1816 تم ترميمه باستخدام بعض الضباط الفرنسيين المنفيين من فرنسا لأسباب سياسية .

يضاف إلى هذا كله بعض الحصون والأبراج المنتشرة عبر الساحل على غرار الحصن الإنجليزي بالناحية الغربية و برج رأس ماتيفو بالناحية الشرقية .

1 - 3 - الثكنات والمعتقلات :

كانت توجد بالمدينة سبع ثكنات للانكشارية ، خمس منها كبيرة الحجم تستوعب حوالي 600 جنديا ، واثنتان صغيرتان لا تستوعب الواحدة منهما أكثر من 300 جندي وكانت تسمى كل منها دار الانجشارية أو الانجشايرية وأسماؤها : دار الانجشارية باب

عـزون ، الخـراطين ، المقـرون ، القديمـة ، الجديـدة ، الـدروج وأخيـرا دار الانجشـايرية الاسطه موسى أو باب الدزيرة .

هذه الثكنات كانت عبارة عن بنايات مربعة أو مستطيلة المسقط تتوسطها أفنية فسيحة تحيط بها أروقة تتوزع فيها غرف إيواء الانكشارية ، وكانت بكل منها عيون وصهاريج تتوسط الأفنية ، وبعض هذه الثكنات خلدت ذكرى مؤسسيها بكتابات تاريخية كثكنة باب عزون التي تضمنت ثلاث كتابات على ألواح من الرخام ، إحداها باللغة العربية واثنان باللغة التركية .

أما عن المعتقلات فعددها خمسة وقد كانت مخصصة للعبيد والأسرى النصارى يتكلم هايدو عن أحدها ويقول أنه مربع المسقط مؤلف من طابقين أبعاده 40×70 قدم يتوسطه فناء بمركزه صهريج ماء ، وبأحد جوانبه في الأسفل يوجد مكان عبادة للنصارى يقيمون فيه صلواتهم وشعائرهم .

وكانت هناك سجون أخرى للمدنيين يزيد عددها عن العشرين ، وفيها المخصصة للنساء فقط ، وكان هناك سجن مخصص للكراغلة ، كما كانت هناك سجون أخرى خاصة بالجيش ، فالسجناء من الجند لا يختلطون بالسجناء المدنيين .

1 - 4 - تحصينات الميناء :

كان يعد ميناء الجزائر الخط الدفاعي الأول عن المدينة من جهة البحر لذا فقد اهتم حكام الجزائر دائما بتقويته وتدعيمه بمختلف الدفاعات والتحصينات العسكرية ، فأول ما قام به خير الدين بربروس بعد الانتصار على الإسبان 1529 الاستيلاء على حصن الصخرة ثم تهديمه ، ثم قام بوصل الجزر الصخرية التي كانت تقابل المدينة مع جزيرة الصخرة الكبيرة مشكلا منها رصيفا بحريا صار ميناء ومرسى لسفن الأسطول الجزائري والسفن التجارية أيضا ، ثم قام ببناء سور حول هذا الرصيف بلغ محيطه 300 خطوة وسمكه 10 أشبار ، أما ارتفاعه فقد كان 15 شبرا فقط ، وزاد صالح رايس في ارتفاعه بسور من الجهة الشمالية سنة 1556 ، وقد أتم هذا العمل الباشا أحمد أعراب عام 1573 بإحاطة جزيرة الميناء الموصولة بالرصيف بسور أيضا مستثنيا منها الجزء الجنوبي والذي يتضمن الميناء ، و قد كان هدفه من ذلك منع سفن الأعداء من الرسو أثناء المعارك البحرية ، وفي 1574 زاد على بابا النكسيس رصيفا آخر في الجزء الجنوبي الغربي أقصر من الأول ، وتوالت الإضافات والترميمات لهذا السور .

وفضلا عن الأسوار المنيعة المحيطة بالميناء ورصيفه زودت الجزيرة الصخرية بمجموعة من التحصينات عددها ثمانية أهمها برج المنار :

أ - برج المنار :

بني من طرف الباشا أحمد أعراب سنة 1572 على قاعدة شبه دائرية يبلغ قطرها 96 م ، وكان يتكون من أربع طوابق ، بالطابقين الثالث والرابع والسطح فتحات للمدفعية ، شكل البرج مضلع به 12 ضلعا ، طول كل ضلع سبعة أمتار في السطح وأكثر من ثمانية أمتار على الأرض ، وينتهي البرج بمنارة مضلعة ارتفاعها عن السطح الأخير 14 م ليصبح ارتفاعه الإجمالي 36.8 م .

ب - برج رأس عمار القديم :

شيده محمد باشا سنة 1784 ويقع شمال برج المنار ، البرج مستطيل الشكل طوله 21 م وعرضه 6.9 م ، ويضم 53 فتحة مدفعية تتوزع على طابقين ، 25 بالسفلي و 28 بالعلوي .

جـ - برج رأس عمار الجديد :

شيده الداي حسين ويتكون من طابقين ، وتنتشر عبرهما 34 فتحة مدفعية ، 17 فتحة بكل طابق .

د - البرج الجديد :

شيده محمد بن عثمان باشا سنة 1774 ، ويتكون من طابقين تتوزع فيهما 21 فتحة مدفعية ، وقد خلد البناء بكتابة تذكارية مكونة من ستة أبيات باللغة التركية وبخط النسخ .

هـ - برج مابين :

شيده الداي حسين باشا وهناك كتبة تأسيسية باللغة التركية ورد بها تاريخ 1239 هـ (1824/1823) ، وقد كان يضم ثلاثة طوابق تتوزع عبرها 18 فتحة مدفعية ، وقد اشتق اسمه من موقعه الذي يتوسط باقي الأبراج .

و - برج السردين :

يعتبر من أقدم تحصينات الميناء ، وهناك كتابتان تاريخيتان تخلدان المبنى ، الأولى باللغة التركية تتعلق بالتأسيس وتحمل تاريخ 1077 هـ (1667) واسم أحمد باشا ، والثانية باللغة العربية تتعلق بترميمه وتجديده في عهد محمد بن عثمان باشا وتحمل تاريخ 1190 هـ (1777) ، وقد اشتق اسمه من رسم سمكتين متقابلتين تعلوان الكتابة السابقة .

ز - برج القومان (الحبال) :

كانت تحفظ بداخله الحبال المخصصة للسفن ومنها أخذ اسمه ، بناه عمر باشا وخلده بكتابة تذكارية باللغة التركية تحمل تاريخ 1231 هـ (1815) ، وتقع الكتابة في ستة أبيات بالإضافة إلى سطر أخير مخصص للتاريخ ، وقد كان يتكون من طابقين تتوزع عبرهما 30 مدفعية ، بين كل مدفع وآخر حوالي 3.6 م .

حـ - برج رأس المول :

وهو آخر برج دفاعي من الناحية الجنوبية الشرقية لذلك سمي برأس المول ، شيده الباشا محمد أعراب ، وهناك ثلاث كتابات تاريخية خلدت ذكرى هذا المبنى جاءت كلها باللغة العربية ونفذت كلها بخط مغربي رديء حسب خلاصي .

تضمنت الكتابة الأولى اسم محمد أعراب بن المعلم علي وتاريخ ربيع الثاني 1115 هـ (أوت 1703) ، وتضمنت الثانية اسم محمد أعراب بن محمد بن المعلم علي وتاريخ ربيع الثاني 1120 هـ (جوان 1708) .

أما الكتابة الثالثة فقد تضمنت اسم علي باشا بن حسين وتاريخ شعبان 1124 هـ (سبتمبر 1712) ، وتعدد التواريخ والأسماء ربما يدل على أن البناء لم يتم في وقت واحد لكنه متقارب .

وفضلا عن التحصينات والأبراج توجد بجزيرة الميناء ورصيفه منشآت ومرافق أخرى نذكر منها مخازن الرصيف ، وقد شيدت سنة 1814 في عهد علي باشا ، وهي بناء مستطيل الشكل يتكون من قسمين شمالي وجنوبي يضمان مجموعة من القاعات كانت تستخدم لخزن الحبال وعتاد السفن وأيضا لخزن المؤن للجند في حال حصار الميناء .

نذكر منها أيضا دار لوكيل الحرج وأخرى لأمير البحر ، وأيضا عين ماء تقع تحت دار وكيل الحرج ، بالإضافة إلى مسجد صغير مساحة بيت الصلاة فيه 47.25 م^2 ، ولم تكن لهذا المسجد مئذنة ولا منبر على غرار مصليات الأحياء .

2 - العمارة العسكرية بمدينة بجاية :

كانت هذه المدينة تتمتع بمكانة هامة منذ العهد الحمادي فالموحدي ثم الحفصي ، ويبدو أن هذا الأمر لم يتغير بمجيء العثمانيين ، فقد صارت واحدة من أهم مدن الإيالة بسبب موقعها الاستراتيجي المطل على البحر وميناؤها الذي قال عنه شالر بأنه الأفضل شرق الإيالة ، وقد كانت من المدن التي احتلها الإسبان سنة 1510 ، لذلك ففور تحريرها واسترجاعها حرص العثمانيون على إعادة تحصينها لحمايتها من الأعداء ، وتم تزويدها بمجموعة من الأبراج والقلاع نذكر منها :

2 - 1 - قصبة المدينة :

تقع في أقصى الجهة الجنوبية الشرقية للمدينة ، وعلى غرار قصبة مدينة الجزائر فقد كانت مجمعا يضم عددا من المنشآت بعضها عسكري تحصيني نذكر منها القاعدة الجنوبية الشرقية وقد كانت تتكون من برجين ، برج حمادي قديم وبرج القمة وواجهة بحرية بينهما تضم العديد من فتحات المدفعية .

ونذكر منها أيضا قلعة القصبة (الحصن الإسباني) وكانت تضم بطاريتين ، الأولى من طابقين تحرس مدخل القصبة وجدار التحصين الشرقي ، والثانية تحرس باب البنود ودار الصناعة ، وبينهما جدار يضم بعض فتحات المدفعية على السطح .

2 - 2 - برج موسى :

شيد على أنقاض حصن إسباني دمر عند تحرير المدينة منتصف ق 16 ، والذي بدوره شيد على أنقاض قصر النجم الذي أسسه المنصور الحفصي ، والبرج ذو مسقط مربع ينتهي في زوايتين منه بخاصرتين أو جناحين ، ويتكون من أربع طوابق .

الطابق الأرضي يتخذ الشكل العام للبرج وبه المدخل الرئيسي ، الطابق الأول يضم قاعة كبيرة مربعة بها فتحات للإنارة والتهوية بالجدران الخارجية ، الطابق الثاني يضم 3 فتحات فقط للمدفعية ، أما الرابع فيضم 23 فتحة .

2 - 3 - برج عبد القادر :

يعود في الأصل إلى العهد الحمادي حيث كان يحمي قصر اللؤلؤة ، ثم قام القائد الإسباني بيدرو نافارو بتجديده لتحصين الجهة الشمالية الشرقية ، وجعله متصلا بجدار

السور ، وعند احتلال الفرنسيين للمدينة كان يضم عشرين مدفعا وفتحات للقناصة بالبنادق ، وهناك تحصينات أخرى بالمدينة أقل أهمية بعضها إسباني نذكر منها : برج النصر (ثلاث مدافع) ، برج الصليب (ست مدافع) والبرج الصغير (خمس مدافع) .

3 - العمارة العسكرية بمدينة مستغانم :

احتل الإسبان مدينة مستغانم سنة 1511 ، ولذلك حرص العثمانيون لاحقا بعد تحريرها على تقويتها وتدعيمها ، ومن تحصيناتها في العهد العثماني نذكر :

3 - 1 - برج الترك :

شيده الباي مصطفى بوشلاغم (1687-1733) في آخر حكمه ، ويقع شرق المدينة العتيقة ، وهو حصن مربع المسقط ينتهي بأبراج بارزة سداسية الشكل بكل من الزاويتين الشمالية الشرقية والجنوبية الغربية ، يتربع هذا الحصن على مساحة إجمالية قدرها 1230 م^2 ويتكون من طابقين ، وبهما مجموعة من الغرف تتوزع حول فناء مربع كبير ، أما جدرانه فيترواح سمكها بين متر ونصف إلى مترين ، وتتوزع بالطابق العلوي فتحات لعشرين مدفعا .

3 - 2 - برج المحال :

كان يقع على الطريق السلطانية غربا ويعتقد أنه شيد قبل 1511 ، أي قبل مجيء العثمانيين ، وكان يضم 12 مدفعا في العهد العثماني ويشرف عليه 32 جنديا ، وبعد الاحتلال الفرنسي رمم واستخدم من طرف الإدارة القضائية كسجن مدني .